

الفصل الخامس

ضيف الجنة الشهيد

سارت « المعارضة » في طريقها ، تلح على التغير والتحول نحو ما تراه أفضل وأمثل . . متوسلة بالحوار الدائب مع الخليفة - هذا الحوار الذي كان يروح بين الرفق والحدة ، ولكنه لا يُفسد للإيمان ولا للصحة قضية . .

وسارت « المؤامرة » في طريقها ، تريد تقويض الدين والدولة وتتسع لكل الأهواء ، وتستغل كافة الظروف ، وتدفع في طريقها بكل القوى المناوئة للخليفة ، متوسلة بالفرية والتأمر .

* * *

والخليفة « عثمان » رضى الله عنه ، وقد بلغ الثمانين من عمره ، لا تزال خصاله وفضائله غضةً فتيّة ، تقوده على طريق اقتناعه ومبادئه . .

فهو يكره سفك الدماء ، وينأى عن القسوة ، ومن ثمّ ، راح يحاول

ثم يحاول أن يحسر المدَّ المتآمر بالرفق تارة وبالزجر تارة أخرى . .
فلا الرفق أغنى ، ولا الزجر أفاد . . ! !

هنالك ، سيطر على رُوع الخليفة واجب ، بدا له يومئذ أنه أهم
الواجبات وأقدسها . . ذلكم هو : المحافظة الكاملة على هيئة الدولة
وسلطانها . . وعند ما نطالع أنباء تلك الأيام الأخيرة في حياة الخليفة
نكاد نسمع صوت تفكيره وخواطره وهو يدرس القضية والأزمة
في ضوء هذا السؤال : لمن يجب أن تكون السيادة : للدولة أم للفوضى . . ؟؟
وعندما تُواجه دولة ما بفتنة مخربة ، وتمرد آبق ، يهدفان إلى هدم
كيانها ، ودَحْر قِيَمِها ، فإن اعتصام هذه الدولة بكبرياتها ، وسلطانها ،
يصبح واجبها الأول ومسئوليتها المقدسة .

ولقد أدرك الخليفة ذلك ببصر ثاقب ، وحمل مسئوليته بعزم
مجيد ! !

لقد كانت تترامى إليه أنباء « عبد الله بن سبأ » وتحركاته . . كذلك
أنباء الذين يُعدون لثورة مسلحة ضد الخليفة ، في مصر . . وفي البصرة . .
وفي الكوفة . . هؤلاء الذين كانت طريقتهم في التحرش بالدولة تفضح
نواياهم ، وتُشَيِّ بأغراضهم المريبة والبعيدة . . أبعد كثيراً مما كانوا
يتظاهرون به ويدورون حوله . . ومع ذلك فقد بقى الخليفة مستمسكاً
بعُرى مبادئه ، وفضائله ، ومزاياه .

ولم يكن ثمة مظهر لهذا الاستمساك أجلاً ولا أروع ولا أبهى
من تصميمه المطلق على ألا يستخدم القوة في دَحْر الفتنة ، وإذا

كان لا بد لِدَمٍ أَنْ يُسْقَ في ذلك النزاع ، فليكن دَمَهُ هو .. دون غيره من المسلمين .

هذه صورة باهرة ، ما أكبر ما تغيب عن بال الذين يتدارسون تاريخ الخليفة العظيم . ١١١

لكنها صورة «مسيح» آخر .. مُمَجَّد وحليل . يرى الثوار يُحاصرون داره ، شاهرين سيوفهم العاوية .. وتَوَاتِيهِ فرص قتالهم وقتلهم ، فيرفضها ، قائلا كلمته الخالدة :

« مَا أَحْبَبَ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ فِي عُنُقِي قِطْرَةَ دَمٍ »

لامرئٍ مُسلم ، ١١١

ثم تواتيه فُرص الخروج من النار المحاصرة ، والتجاة من القتل المتربصين ، فيرفضها معلناً : أنه على موعد في الجنة ، مع الرسول وصاحبه .. وأنه يتبأ الآن للسفر إلى مواعده ١١١
ألا مَنْ شَاءَ أَنْ يَبْصُرَ الشَّخْصِيَّةَ الْبَاطِنَةَ [لعثمان بن عفان ، بكل ما تزخر به من حقيقة وعظمة ، فحسبه هذا الموقف وحده ، دُونَما حاجة إلى سواه ..

ولكن ، ما لَنَا نتعجل الحديث ، ونطوى الأحداث .. ؟

فلنَعُدْ إلى وراء قليلاً . .

* * *

قلنا إن جماعة من المتحدرين ، كانوا قد غادروا مصر إلى المدينة ، كما خفَّ إليها وفد من الكوفة وفد من البصرة .

وهناك تقدموا للخليفة بمطالبتهم ، وجرى بينه وبينهم حوار عنيف ،

انتهى بوساطة «الإمام على» ، وبوعد من «ال خليفة» أن يستجيب لما هو صواب من مطالبهم ، ثم يعهد منهم أن يعودوا إلى بلادهم وأمصارهم في طاعة وهادوء . .

بعد ذلك ، أرسل الخليفة إلى ولاته على الأمصار حيث شاورهم في الأمر . . ولو أنهم أخلصوا يومئذ في معاونته على أمره ، لوضعوا استقلالهم جميعاً بين يديه ، ولكن موقفهم كان مغايراً . مما جعل الخليفة يتردد في عزله . وبخاصة أنه وهو يرى نار الفتنة يزداد من حواله ضيراً . .

* * *

كان هذا الزحف الأول على عاصمة الخلافة ، نذيراً رهيباً ، وزئيراً عالياً ، لأعاصير زاحفة .
ولكن الخليفة وطن نفسه ووطد عزمه على الصمود أمام الأخطار . .

لقد اقتنع بأن الأزمة تفاقمت إلى حد ، لم يعد من حقه معه أن يتنازل عن ذرة من هيبة الدولة وسلطانها . ومهما يكن هناك من مأخذ وأخطاء ، فإن إقرار هذا السلطان هو الواجب الأول والأهم أمام الفوضى الجارفة التي لم تتمثل في التهجم على شخص الخليفة ، ومُجابهته بهُجر القول وفاحش السباب فحسب ، بل تمثلت في تهديد الدولة بقوة السلاح . .

وتزدحم أمامنا صور الثبات الباهر للخليفة . . نختار منها هذه

الصورة :

فعندما انتهت اجتماعاته بأمراء الأمصار ، وتأهبوا للعودة إلى أمصارهم ، عرض معاوية على « الخليفة » أن يصحبه إلى الشام حتى تستقر الأمور .

فرفض الخليفة قائلا :

« لا أختار بجوار رسول الله جواراً

سواه » ...

وعاد معاوية ، يعرض عليه أن يرسل جيشاً من الشام يربط بالمدينة ، ويحافظ على حياة الخليفة .

فرفض الخليفة قائلا :

« أخشى أن يزحموا المدينة ، وتضيق بهم

على أصحاب الرسول من المهاجرين

والأنصار » .

وعاد معاوية يقول للخليفة : إذن سيغتالوك ..

وكان جواب الخليفة العظيم :

« حَسْبِيَ الله ، ونعم الوكيل »

ثبات عجيب على مبادئه ، وولاء فذ لاقتناعه !

وتمضى الأحداث سريعة ، لا ترحم الناس ولو بقليل

من البطء ...

فإن زعماء الأحزاب في مصر ، وفي البصرة ، وفي الكوفة تكاثبوا

واتفقوا على أن يخرج فيالقهم المسلحة إلى المدينة ، حيث يلتقون هناك

ليعزلوا الخليفة بقوة السلاح ..

واستيقظت المدينة يوماً على مثل هزيم الرعد ، وعلى منظر رهيب من آلاف الثوار المسلحين .. احتشدوا هناك عند مشارف المدينة ، وأرسلوا وفداً منهم للقاء « الإمام على » الذى لم يكذب يعرف نبأهم ، ويرى حشودهم حتى صاح قهقهة بكل عزمه وبكل إخلاصه .

= [ارجعوا إلى بلادكم ، لاصبِّحكم الله] !!

ولكن الثوار المتمردون ، ظلوا فى مواقعهم وعلى رأسهم زعمائهم من الأمصار الثلاثة .. والخليفة فى داره يتساءل : ماذا يريدون ؟ .. ؟ !

= أن أعزل أمراء الأمصار .. ؟ وماذا ستكون العاقبة ، إذا كانوا كلما كرهوا أميراً عَزَلْ .. ؟ !

= أن أسلمهم مروان بن الحكم ؟ وكيف أسلمهم إياه ليقتلوه ؟ أجل .. ليقتلوه ..

= ثم ماذا سيكون مصير الدولة بكل سلطانها ، وهبتها ، وكرامتها ، إذا هى عَتَتْ اليوم وركعت أمام هؤلاء الشائرين المتمردين .. ؟ ؟

بيد أن الموقف كان يتطور فى سرعة رهبة ، حملت الخليفة على أن يستنجد بالإمام على كرم الله وجهه ، ليفاوض الثوار ، وليحملهم على إلقاء السلاح والرحيل عن مدينة رسول الله وعاصمة الإسلام .. لقد كانت « كرامة الدولة » تشغل باله إلى أبعد مدى ..

ولكى يحافظ على هذه الكرامة ، اشترط لتسوية الأزمة أن يرحل الثوار أولاً ..

وبعد ما يعودون إلى بلادهم ، يقوم بعزل « مروان » رئيس ديوان الخلافة ، وعزل أمراء الأمصار الذين تُلاحقهم شكوى الثائرين .
وأعطى « علياً » وعداً صادقاً ، وعهداً وثيقاً بذلك . .
ومن قوّره ، خرج « الإمام على » إلى خيام المتمردين ومعه « محمد ابن مسلمة » و « سعد بن أبي وقاص » واستطاع « الإمام » أن يقنعهم بالعودة والرحيل باذلاً في هذا السبيل جُهداً خارقاً ونبيلاً .

* * *

ومضت أيام قليلة ، وإذا بالمدينة تُروّع ذات صباح بالثوار الذين عادوا أذراجهم ، زاحقين على المدينة ليحتلّوا شوارعها ، وليفرضوا حول دار الخليفة حصاراً رجيماً . . ! !

ماذا حدث . . ؟ وماذا دَهَى الثوار . . ؟ !

لقد خرج إليهم « رسول السلام » ، على بن أبي طالب « يسألهم :
لماذا نكثوا العهد وعادوا . . ؟ ؟

فنشر زعماء ثوار مصر أمامه كتاباً وقالوا : اعتقلنا في الطريق رجلاً أرسله مروان بهذا الكتاب الممهور بخاتم الخليفة ، وفيه أمر لوالى مصر بقتلنا وصلبنا . .

وعاد الإمام يسأل ثوار الكوفة والبصرة : وأنتم ، ما الذى جاء بكم . . ؟ ؟

قالوا : جئنا لنُصَرِّحَ إخواننا المصريين . .

وسألهم الإمام : لكنكم ذهبتم من طريق ، وهم من طريق . . فأنى لكم عِلْمُ هذا الكتاب . . ؟ ؟

لكن الوقت لم يكن وقت مناقشة وجوار :

إنها الفتنة ، قد شدَّ زنادُها إلى أقصاه ، تنتظر كمسة بنان ، فتقع الكارثة ، وتحلّ الفاجعة . . ! ! ترى ، ماذا كانت حقيقة ذلك الكتاب الذى قالوا إنهم ضبطوه . . ؟ ؟

أمّا أن يكون « الخليفة » هو الذى كتبه ، أو أملاه ، أو علّم به ، فأمر أبعد من المستحيل . .
لقد أقسم بالله وهو صادق ، أنه ما كتبه ولا أشار بكتابه ، ولا علم من أمره شيئاً . .

ومن غير أن يُقسم - رضوان الله عليه - فما ذلك بخلق رجل تحمّل ألوان الأذى والوقاحات فى سبيل الألق تراق قطرة دم من مُسلم ، حتى لو يكون هذا المسلم أحد أولئك الذين تلمّوا إسلامهم بالتأمر والعصيان ! ! !

إذن ، من الذى يحمل وزر هذا الكتاب ؟

إنه أحد اثنين :

إمّا « نَفَر » من زعماء الثوار . . وإمّا « مروان » .

أمّا الأولون ، فلأن لهم سابقة فى مثل هذا التروير ، فحين عزموا أمرهم على الخروج من مصر ومن الكوفة ، ومن البصرة إلى المدينة ، دبّر بعض زعمائهم حيلة يحملون بها أكبر عدد من المسلمين على الخروج معهم - فزوروا كتباً على لسان « أم المؤمنين عائشة » وعلى لسان « طلحة » و « الزبير » يدعون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة

لقَتال «عثمان» .. ولم تُعرف حقيقة هذه الخدعة الكاذبة الخاطئة ،
 إلا بعد وقوع الواقعة واغتيال الخليفة ..
 وهكذا ، لا يبدو غريباً على الظن أن يكون مُزَوَّرُ تلك الكُتُب ،
 هم الذين افتعلوا هذه الأكلوبة الجديدة ، وأنقنوا إخراجها ..
 فإن لم يكونوا .. فهو إذن «مروان» .
 ومروان - كما يُعرفنا به التاريخ - لم يكن له من دينه ولا من خلقه ،
 ما يردُّعه عن اقتراف مثل ذلك العمل المُزَوَّر .
 ولقد طالب الثوار بتسليمه على الفور .. ولكن «الخليفة الرحيم»
 كان يرى مصيره المحتوم إن هو وقع في أيديهم .. فرفض تسليمه .
 لم يفعل الخليفة ذلك رِضاً بما فعل مروان .. وإنما هي طبيعة
 رجل لا يُطبق أبداً أن يُسلم يديه إنساناً إلى ساحة القتل والإعدام .. !!
 أليس هو الذي رفض من قبل إعدام «عبيد الله بن عمر»
 وكان قصاصاً مشروعاً ، وتحمل أمام الله مسؤولية استبدال الدية
 بالقصاص .. ؟ !

إن رحمته بالآخرين ، وجزعته من رؤية الدم المسفوك ، لا يدعانه
 حتى في هذه الساعات الرهيبة بنجوب حياته ، ويخلص بمصيره .. !!

وأخرج الثوار ورقهم الأخيرة ، ورفعوا عقائرهم في جراءة ضارية :
 [إمّا اعتزال عثمان ، وإمّا قتله] ...

وفي ثبات مذهل ، رفض الخليفة أن يعتزل .. لماذا .. ؟ أحرصاً
 على مجد المنصب وجاهه .. ؟ ؟

ألا فلنسأل طبائع البشر ، مُدَّ وجد أبو البشر « آدم » حتى يومنا
 هذا .. أيمكن لرجل جاوز الثمانين ، أن يستبدَّ به طموح تحيط به
 الأخطار والمهالك على هذا النحو المزلزل الرهيب .. ؟ ؟ !
 لقد رفض « عثمان » إذن أن يعتزل ؛ لأنه « رجل مسئوليات »
 من طراز فريد ..

وهذا خلقٌ كان مخبوءاً تحت ستار تواضعه وحيائه ، وما كُنَّا
 سنراه مثلاً كرائعة النهار ، إلا في أزمة كهذه .. ومحنة كهذه ..
 وموقف كهذا الموقف الزاخر العظيم .. ؟ !
 لقد ذكر وصيةً كان الرسول قد أوصاه بها :
 « يا عثمان ..

« إذا الله كساك يوماً سربالاً ، وأرادك
 المنافقون على خَلْعِهِ ، فلا تَخْلَعْهُ لظالم » ..

ولقد كساه الله « سربالَ الخلافة » ..
 وهام أولاء المتمردون الظالمون ، يريدون بقوة السلاح الأثيم في
 أيديهم ، أن يُكرِهوه على خَلْعِهِ ..
 أفَيَرْضَخُ لهم .. ؟ ؟
 أفيسلم مصاير الإسلام ، وكرامة الدولة ، لعصاية مفتونة .. ؟ ؟ لا ..
 ولكي يستوثق من سلامة موقفه وسداده ، أرسل إلى رجل من
 خيار أصحاب الرسول يستشيرهُ ، ذلُكم هو .. « عبد الله بن عمر »
 رضى الله عنه ..

وَلْتَصْنَعْ لَ « نَافِع » مَوْتِي « ابْنِ عَمْرٍ » ، يَنْقُلُ إِلَيْنَا الْحَوَارِ الَّذِي
دَارَ بَيْنَ الْخَلِيفَةِ ، وَعَبْدِ اللَّهِ ..

الْخَلِيفَةُ : إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ يَرِيدُونَ خَلْعِي ، فَإِنْ أُجِبْتُهُمْ
تَرْكُونِي ، وَأَنْ أُبَيِّتُ قَتْلُونِي فَمَاذَا تَرَى .. ؟

ابْنُ عَمْرٍ : أَرَأَيْتَ إِنْ خَلَعْتَ نَفْسَكَ ، تَبْقَى فِي الدُّنْيَا مُخَلَّدًا ..
الْخَلِيفَةُ : لَا ..

ابْنُ عَمْرٍ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ تَخْلَعْ نَفْسَكَ ، هَلْ يَزِيدُونَ عَلَى قَتْلِكَ
شَيْئًا .. ؟؟ هَلْ يَمْلِكُونَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ .. ؟؟
الْخَلِيفَةُ : لَا ..

ابْنُ عَمْرٍ : إِذَنْ ، فَلَا تَسَنَّ هَذِهِ السَّنَةَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَا تَخْلَعْ
قَمِيصاً أَلْبَسَكَ اللَّهُ ..

وإِنَّا لَنَكَادُ نَرَى الْفَرَحَةَ تَتَرَقَّقُ فِي مُحِبِّاتِ الْخَلِيفَةِ ، وَهُوَ يَسْتَمِعُ
هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، يَشْدُو أَزْرَهُ بِهَا صَحَابِيُّ جَلِيلٍ مِثْلَ « عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ عَمْرٍ » .. !!!

ولكنه إذا كَانَ قد وَطَدَ عَزَمَهُ عَلَى التَّضَحُّيَةِ بِحَيَاتِهِ فِي سَبِيلِ كِرَامَةِ
الدَّوْلَةِ وَكَيَانِهَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتَقَاعَسْ عَنْ بَذْلِ كُلِّ جُهِدٍ مُسْتَطَاعٍ لِإِقْنَاعِ
الْمُتَمَرِّدِينَ بِإِلْقَاءِ سِلَاحِهِمْ ، وَالتَّخَلِّيِ عَنْ إِيَابِقِهِمْ ..

وَفِي ذَلِكَ ، كَانَ يُلْجَأُ إِلَى الْإِمَامِ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهِهِ كَثِيرًا
بَلْ دَائِمًا ..

وَالْحَقُّ أَنَّ « الْإِمَامَ » تَحَمَّلَ فِي تِلْكَ الْفَتَنِ فَوْقَ طَاقَتِهِ .. وَكَانَتْ
الرِّيَاحُ الْمُوجُّ الَّتِي يَشِيرُهَا الْمُتَمَرِّدُونَ مِنْ جَانِبٍ ، وَمُرْوَانُ مِنْ جَانِبٍ

آخر ، تتحدّى زورقه المستبسل الوديع ، وتعصف بمحاولاته النيلة ..
 بيد أنه لم ييأس ، وظلَّ يُغالب العاصفة ، ويغطّي بحواره المفتح زئيرها ،
 ولكن الفتنة كانت قد تجاوزت كل حدود التعقل ، واحتلّت أعصاباً
 متوترة إلى أقصى درجات التوتر ، فلم يعد للحكمة ولا للإقناع مكان .
 وحين يبلغ القلق العصبي ذروته القُصوى ، فإن أصحابه يتخففون
 من أعبائه المرهقة بمواجهة الأخطار التي أثارته وكانت سبباً له .

وهذا هو الذى حدث فى نهاية المطاف .

لقد أحكم المتمردون حصارهم القاسى حول دار الخليفة ؛ فمنعوه
 زوّاره .. ومنعوه الماء .. الماء الذى تنفجر به « بشر رومة » التى
 اشتراها من خالص ماله فى أوائل أيام الهجرة إلى المدينة وجعلها ،
 هدية منه للمسلمين !!!

ولم يكف بعض زعماء الفتنة ما أنزلوه بالخليفة من أحزان ، حين
 توقّحوا عليه بشتائم بذيئة على ملاّ من الناس .. !!

ولم يكفهم تهجّم أحدهم عليه ، وهو فوق منبر رسول الله يتبأّ لإلقاء
 خطبة الجمعة .. !!

لقد غرّهم حلمه ، وأغرّتهم مُصابرته ..

ظنّوا - وكان ظنّ السوء - أن وراء هذا الحلم وهذه المصابرة ،

حرص الخليفة على الخلافة ، وعلى الحياة ..

ولم يعلموا ، أو كعلمهم علموا وبجاهلوا ، أن وراء حلمه ومصابرته ،
 إدراكه الثاقب للمصير الفاجع الذى سيحيق بالأمة وبالدولة ، إذا هم
 تسوّروا حرّمات السُلطة ، واغتالوا حياة الخليفة .. !!

ولقد قال لهم ذلك من قبل :

« .. إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال

عليهم عمرى .. »

« أما والله لئن فارقتهم لَيَتَمَنَّوْنَ لو أن عمرى

طال فيهم كل يوم بسنة .. وذلك

مما يروْنَ من الدماء المسفوكة » !

كان إدراكه الثاقب لهذا المصير الذى تحققت عنه نبوءته ، هو

الذى يحمله على المصابرة .. بل على التوسُّل ، كى يتخلى الثوار عن

فتنتهم ، ولكن زعماء الفتنة الذين عملوا لها طويلاً ، لم يكن يُرضيهم

إلا تفجير الأحقاد الناصفة ، لتسقط الدولة كلها كسفاً ..

والآن وقد أحكموا قبضتهم على زمام الموقف ، فإنهم راحوا يتبأون

للضربة الأخيرة ، فحاصروا دار الخليفة استعداداً لانزاعها ..

وطال الحصار ، ثم طال .. حتى صار أهل المدينة من طول

إيلافهم له يروحون ويغدون ويحيون حياتهم العادية فى رثائهم

المألوفة ..

كانوا جميعاً أقرب إلى اليقين بأن شيئاً مآ سوف يحدث . فتنجلى

الأزمة ويرحل الثوار ..

لم يكن أحد يتوقع برغم ضراوة التمرد أن يبدأ ستمتد إلى حياة

الخليفة فتغالبها .

• إنه شيخ فى الثمانين من عمره ، بل جاوز الثمانين ..

• وإنه من المؤمنين الأوائل المبكرين ..

• وإنه صهرُ رسول الله ..

• وخليفته ..

• والمبشر بالجنة ..

• ومُجهز جيش العسرة ..

• والباذل ماله بغير حساب في سبيل الله ، ورسوله ، ودينه ..

فَمَنْ ذا الذى لا يرى كل هذه الحرمات ، ومهما يختلف مع الخليفة في أمر أو في أمور .. ؟؟

من ذا الذى يحمل في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان ، ثم يجد التهور الذى يدفعه لمواجهة « عثمان » بسلاح قاتل رجم ..

الحق أن اغتيال الخليفة رضوان الله عليه ، كشف تماماً عن حقيقة المؤامرة وحقيقة بعض زعمائها الواغلين .. كما كشف عن تلك الكثرة المخدوعة من الناس الذين لم تكن النوايا الحسنة تنقصهم بيد أنهم خُدعوا ، وغرر بهم ، فساروا وراء حفنة من المتربصين بالإسلام سوءاً وأى سوء ... !!!

قلنا : إن القلق العصبي حين يبلغ ذروته القصوى لا يجد أصحابه سبيلاً للتخلص منه ، سوى مواجهة المخاوف التى سيَّته ..

ولقد سارت المجابهة القاسية حتى بلغت هذا المدى ، ولم يعد يُد من أن يتهاى المسرح لمشهد الختام ..

• فى دار الخليفة كان يقبُع « مروان » مع نفر من أتباعه المسلحين .

• وعلى أبوابها ، ثلَّة كريمة من الصحابة ، خَفُوا بِسَلاَحِهِمْ لَافْتِدَاءَ الْخَلِيفَةِ .. فِيهِمُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ ابْنَا «عَلِي» أَرْسَلَهُمَا أَبُوهُمَا الْعَظِيمُ لِيَحْرَسَا مَنَافِذَ الدَّارِ .. وَفِيهِمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ .. وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَآخَرُونَ ..

• وَخَارِجُ الدَّارِ ، وَحَوَالِئُهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، صُفُوفٌ عَرِيضَةٌ مِنَ الثَّوَارِ الْمُدَجَّجِينَ ، تَوَزُّهُمْ أَزَا عَنِيفًا تَلُكُ الْأَنْبَاءُ الَّتِي جَاءَتْهُمْ بِأَنَّ مَعَاوِيَةَ أَرْسَلَ قُوَّةً مِنْ جَيْشِ الشَّامِ .. وَهِيَ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهَا .. !!

• أَمَّا الْخَلِيفَةُ ، فَقَدْ طَلَعَ عَلَيْهِ صَبَاحُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَهُوَ فِي عَالَمٍ آخَرَ ، لَا يَكَادُ يَعْنِيهِ شَيْءٌ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الدُّنْيَا الْقَائِمَةِ حَوْلَهُ وَالْقَاعِدَةِ .. لَقَدْ تَلَقَّى دَعْوَةً إِلَى الْجَنَّةِ .. وَهُوَ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ بِهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ عَدَاهَا .. !

فِي الْأَمْسِيَةِ السَّالِفَةِ وَبَعْدَ أَنْ صَلَّى مِنَ اللَّيْلِ مَا صَلَّى .. وَقَرَأَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا قَرَأَ .. وَاتَّقَى نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ ضَارِعًا مُبْتَهِلًا ، أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ وَنَامَ .. وَفِي مَنَامِهِ رَأَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَهُ :

« أَفْطِرُ عِنْدَنَا غَدًا ، يَا عُثْمَانُ » !!

مَا أَبْهَجَهَا مِنْ كَلِمَاتٍ ، بَعَثَتْهُ فِي خَلْقٍ جَدِيدٍ !!
وَإِنِّهَا لَكُرُوبَا حَقٍّ ..

و «عُثْمَانُ» أَكْثَرُ النَّاسِ يَقِينًا بِصِدْقِهَا ..

وإذن ، فليس أمامه سوى وقت قصير لكي يتبها لموعد المصطفى ،
ورحلة الخلود ..

سيترك للناس دنياهم ..

وسيدع للشوار تلك الجدران الأربعة التي يحاصرونها ، مُنطلقاً
في عرسه العظيم إلى رحاب الله ، وجوار محمد ... !!
أصبح ذلك اليوم صائماً .. فقد كان منذ أسلم يقضى أكثر أيامه
في صيام ، وكل لياليه في قيام .

ودعا جميع الذين في داره ، وأمامها ، ممن يحملون السلاح
دفاعاً عنه ، أن يلقوا سلاحهم ، ويغادروا الدار مشكورين ، وفي
رعاية الله ..

لكنهم أبوا جميعاً أن يتركوا ، مواقعهم حوله ومعه ، لا سيما الحسن ،
والحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر ..

بيد أن أمر الخليفة وإلحاحه ، ظللاً يبيان بكل حامل سلاح
أن يلقى سلاحه ..

« إن أعظمكم عني غناءً ، رجل كفَّ
نفسه ، وسلاحه .

« أناشدكم الله ، ألا تُهْرَقُوا بسببي دماً » ..

وترامى إلى سمعه هرج شديد خارج الدار . فقد أقبل من أهل
المدينة ناس كثيرون ، اشتبكوا مع المتمردين ، وراحوا يحاولون إبعادهم
عن دار الخليفة .. وأطل الخليفة على الجمع الحاشد من شرفة داره ،
ونادى المتمردين بكلمات أخيرة ، أراد أن يرى بها ذمته :

« أيها الناس ، لا تقتلوني .. »
 « فوالله ، لئن قتلتموني ، لا تتحاربون
 بعدي أبداً .. ولا تُصلُّون جميعاً
 بعدي أبداً .. »

وعاد إلى حجرته ، فصلّى ركعتين .. ثم حمل مصحفه بيديه ،
 وراح يقرأ .. ويقرأ .. متأنّقا بين آياته المحكمات ، وروضاته
 الياضات .. ! !

* * *

وضاقت الصدور المكبوتة تحت ضلوع زعماء الفتنة ، وخشوا أن
 تدور عليهم الدائرة ، فأمروا بمهاجمة الدار ..
 لكن الثلّة الطاهرة تحت إمرة الحسن ، والحسين ، وابن الزبير ،
 وابن عمر .. أبليت في صدّهم بلاءٌ مُعْجِزاً ، حتى ردّتهم عن الأبواب
 صاغرين ..

هنالك ازداد حقدهم ضراماً .. وركبتهم كل شياطين الجريمة ،
 فنظروا ، فإذا دار مجاورة لدار الخليفة قرية المنال ، فقرروا أن
 يتسوروها ، ويتسلّلوا إلى مكان الخليفة منها ..
 واختاروا من بينهم نفراً يقوم بالمهمة على عَجَل ، ونادوا « محمد
 ابن أبي بكر » ليصحّهم ..

وما هي إلا دقائق معدودة ، حتى كانت الخطة قد أنجزت وفجأة
 رأى الخليفة أمامه أولئك المتسوّرين ، ورأى « محمد بن أبي بكر »
 يتقدمهم ، ويُمسك لحية الخليفة بيده ويهزّها متوعداً ..

وقى هدوء القديسين ناداه الخليفة :

« يا ابن أخى .. !! »

« دَعْ لِحَيِّى ، فوالله لقد كان أبوك يُكرمها .. »

ولورآك فى مكانك هذا ، لاستحيا

مما تصنع .. !! »

ودارت الأرض بمحمد .. وارتدت يده فى خشوع وندم .. !!

وانطلق مسرعاً خارج الدار يسوق أمامه أولئك الذين كانوا قد

تسوروا معه ..

وعلى بابها الفسيح ، وقف يندب المهاجمين .. !

وحنَّ جنون ذلك النفر من زعماء الفتنة ، وهزَّهم موقف « محمد »

هذا ، كما لم يهزهم موقف آخر .. وتراءى لهم مصيرهم الأسود ،

فشلُّوا على الدار المجاورة شدة واحدة ، ومن فوق سورها القريب قفروا

كالذئاب الجائعة المسعورة ، واقتحموا على الخليفة خلَّوته :

وكان آتئذ قد بلغ فى تلاوته ، هذه الآية الكريمة :

« الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا

لَكُمْ ، فَانْخَشَوْهُمْ ، فزَادَهُمْ إِيمَانًا ،

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » ..

لم يُبال بهم ، ولعله لم يُحس بتقحمهم ، فقد كانت غبطة روحه ،

وأنسه بآيات ربه ، وفرحته بمأدبة الجنة التى دُعِيَ إليها .

كان كل ذلك يحجب عنه أشباح الشياطين ..

واستمرَّ في قراءته .. على حين اندفع الجناة نحوه ليقتربوا جريمتهم
اليشعة النكراء ..

لم يُقاوم ، ولم يتحرك من مجلسه ، ولم يتخلَّ عن مصحفه ..
ولم يزد على أن قال حين أصابت إحدى ضرباتهم الآتمة كفه
فأصابها في صميمها :

« والله إنها لأوَّلُ يَدٍ خَطَّتْ المَقْصَل ..
وكتبَت آي القرآن .. ! ! »

وحين رأى دمائه تنفجر ، فتَضَمَّخَ أوراقُ المصحف ، طواه
حتى لا تطمس الدماء بعض آياته ، ثم ضَمَّهُ وهو يُسَلِّمُ الروح إلى صدره .
وحين تمدَّد جثثانه الطهور ساكناً سُكون الموت ، كان كتابُ
الله لَصِيْقَهُ .. وَصَدِيقَهُ .. !

وَمَنْ أَوْلَى بِذلك منه .. ؟ ؟

أليس هو الذي وَحَّدَهُ ، وحفظه ، واقتداه .. ؟ ؟ !

• • •

كان الاغتيال الخاطف لحياته قد تمَّ بين العصر والأصيل .
وإذن ، فأمامَ روحه وقتٌ كافٌ لبلوغ موعدها على مائدة الإفطار ،
في الجنة ، عند الغروب .. ! ! !
فلتعرَّجْ إلى بارئها .. ولتذهبْ إلى ضيافته في حُجُور عظيم .
إن رسول الله هناك ينتظر على شوق .. وينتظر معه صاحبه ،
الصديق ، والفاروق ..

لقد تعب «عثمان» طويلاً ، خلال اثنتى عشرة سنة قضاها في
 الخلافة حاملاً أعباءها ولواءها ..
 ولقد كان همه ألا تسقط الراية من يمينه .. وألا يلقى الله حين يلقاه ،
 وعلى يديه قطرة واحدة من دماء مُسلمة ..
 أو قد ظفّر بمبتغاه .. ؟ ؟
 أجل .. كان الظفّر حظّه ، والفوز نصيبه ..
 فليبق للأرض جسده ، مُثخناً دامياً .. أو سليماً مُعافى ..
 ذلك أمر لا يعنيه .. ما دامت روحه الطاهرة ، قد فازت
 بمستقبلها عند الله ..

❧ كتب للمؤلف ❧

- | | |
|---|---|
| <p>١٥ - في البدء كان الكلمة</p> <p>١٦ - كما تحدث القرآن</p> <p>١٧ - وجاء أبو بكر</p> <p>١٨ - مع الضمير الإنساني
في مسيره ومصيره</p> <p>١٩ - كما تحدث الرسول</p> <p>٢٠ - أزمة الحرية في عالمنا</p> <p>٢١ - رجال حول الرسول</p> <p>٢٢ - في رحاب علي</p> <p>٢٣ - وداعاً . . عثمان</p> <p>٢٤ - أبناء الرسول في كربلاء</p> <p>٢٥ - معجزة الإسـلام:</p> <p>عمر بن عبد العزيز</p> <p>٢٦ - عشرة أيام في حياة الرسول</p> <p>٢٧ - والموعـد الله</p> | <p>١ - من هنا .. نبداً</p> <p>٢ - مواطنون .. لا رعايا</p> <p>٣ - الديمقراطية ، أبداً</p> <p>٤ - الدين للشعب</p> <p>٥ - هذا .. أو الطوفان</p> <p>٦ - لكي لا تخرثوا في البحر</p> <p>٧ - لله ، والحرية</p> <p>٨ - معاً على الطريق - محمد والمسيح</p> <p>٩ - إنه الإنسان</p> <p>١٠ - أفكار في القمة</p> <p>١١ - نحن البشر</p> <p>١٢ - إنسانيات محمد</p> <p>١٣ - الوصايا العشر</p> <p>١٤ - بين يدي عمر</p> |
|---|---|

٢٠٠٠/١٥٦٦٠	رقم الإيداع
ISBN 977-02-6059-2	الترقيم الدولي

١/٢٠٠٠/٩٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)